التّأريخ لنشأة النّحو العربي من خلالِ الأعلامِ إلى حين ظهور الكتاب

The History of the Emergence of Arabic Grammar with the Grammarians until the Appearance of the Sibawayh's Book

أ. فاطمة الضّاوي

جامعة تونس – تونس

dhaoui1fatma2@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/02/04 **تاريخ القبول: 2022/04/01**

ملخص:

وسمنا هذا العمل بعنوان "التّأريخ لنشأة النّحو العربي من خلال الأعلام إلى حين ظهور الكِتاب"، وهو عمل لا ينأى عن البحث في تاريخ النّحو العربي ونشأته وقد رمنا التّأريخ له، لكن في ظلّ غياب المؤلّفات النّحويّة قبل الكتاب لسيبويه فقد اعتمدنا الأعلام لنؤرّخ من خلالها. هذا العمل إذن هو بحث في سير النّحاة الأول وقد حفظت الرّوايات شواغلهم النّحويّة، فكانت هذه الرّوايات لنا مرجعا في عنصر أوّل من العمل في مصافحة للنّحاة الأول وقد نشأ النّحو على أيديهم ونما، ثمّ ننتقل في محطّة ثانية إلى نحاة ضمّ كتاب سيبويه سيرهم الفكريّة وما أسهموا به في نشأة النّحو العربي.

الكلمات المفتاحية: تأريخ، نشأة، نحو، أعلام، فكر.

Abstract:

The following work entitled "History of the emergence of Arabic grammar with the grammarians until the appearance of Sibawayh's Book" is a work that is not distant from research in the history of Arabic grammar and its emergence in the absence of grammatical works before Sibawayh's book. The grammarian's biography was adopted to trace grammar development in addition to the use of the first grammarians narrations that preserved grammatical concerns. Hence these narrations were a reference for the study of the first grammarians and their contributions in the genesis of Arabic grammar.

keywords: History, genesis, grammar, scholars, thought.

تقديم:

التّأريخ للنّحو العربيّ هو من المباحثِ الّتي تُعنَى بتاريخ النّحو العربيّ نشأة وتصوّرا في عمليّة قراءة للتّراث النّحويّ تقوم على المحاورة والمجاورة والمجاوزة. ولمّا كان النّحو في مرحلة النّشأة ما يزال في المهد ليس له من مؤلّفات نرجع إليها لقراءته عدنا إلى الأعلام نستقي منها مادّة البحث، ليكون عملنا في التّأريخ لنشأة النّحو العربيّ من خلال الأعلام. ضمّت مرحلة النّشأة نحاة الطّور الأوّل، وقد انطلقت هذه المرحلة مع أبي الأسود الدّؤلي وصولا إلى الخليل الأستاذ المباشر لسيبويه، وقد عدنا في ذلك إلى مجالس العلماء للزجّاجي والإنباه للقفطي إلى جانب الكتاب الّذي ضمّ بين دفّتيه أثر النّحاة في الدّرس النّحويّ وتطويره، وهم نحاةٌ استفاد منهم سيبويه وأسهموا بفكرهم في تأثيث مادّة الكتاب وبناء النّحو العربيّ، ليكون عملنا تأريخا للنّحو من خلال الأعلام إلى حين ظهور الكتاب لسيبويه، وقد استثنينا من النّحاة الخليل الّذي عاصر سيبويه وكان معه مؤسّسا للنّظريّة النّحويّة العربيّة، ليقتصر بحثنا على النّحاة الّذين سبقوا تأليف الكتاب.

1- قبل ظهور الكتاب.

ضبط أبو الأسود الدّؤلي نقط الإعراب ووضع باب الفاعل والمفعول ونبّه إلى الفرق بين أسلوبي التعجّب والاستفهام ففتح الباب على مصراعيه للبحث في بقيّة الأبواب، أمّا من عاصره فلم تتجاوز جهودهم العناية باللّغة في جانبها المعجمي خدمة لمعاني القرآن فكان جلّهم من القرّاء لكنّهم لم يكونوا بمعزل عن النّحو وهو ما يفسّر توجّه تلامذتهم نحو دراسة النّحو والتّخصّص فيه من بين هؤلاء حمّاد ابن سلمة ت 167هـ الّذي حمل سيبويه على الإعراب حتّى دفعه إلى ترك الفقه للتّخصّص في النّحو، ويروى عن حمّاد ابن سلمة قوله: "مثل الّذي يطلب الحديث ولا يعرف النّحو مثل الحمار عليه مخلاة ولا شعير فيها"[1]. وهذا الموقف تبناه جلّ النّحاة من بعده فكانت تحدث المناوشات بينهم وبين الفقهاء حاملين إيّاهم على التّفقّه في النّحو إلى جانب علوم الدّين، وفي ضوء هذه المسألة سئل الخليل عن رأيه في أبي حنيفة وكان الأخير لحّانا كما يروى، "قال المبرّد، قال المازني: رأيت الخليل يأخذ كتب أبي حنيفة فينظر فيها. فقلت له: كيف تراه. فقال: أراه يأخذ الحقّ

فيمسخه"[2]. يؤيّد ما ذهبنا إليه قوله أيضا مؤاخذا أبا حنيفة: "إنّه لخطاب لو ساعده صواب! ثمّ قال لأبي حنيفة: إنّك أحوج إلى إصلاح لسانك من جميع النّاس"[3].

يعدّ عبد الرّحمان بن هرمز بن أبي سعد المدني المقرئ النّحوي "أوّل من وضع علم العربيّة، والسّبب في هذا القول أنّه أخذ عن أبي الأسود الدّؤلي، وأظهر هذا العلم بالمدينة"[4]. كما تعلّم عنبسة بن معدان الفيل العربيّة على يدي أبي الأسود الدّؤلي "فكان أبرع أصحابه"[5] في رواية عن المبرّد إلّا أنّ أخبارهم لم تتجاوز مثل هذه الومضات ناهيك عن علمهم وهو ما يمكن أن ندرجه تحت ظروف نشأة النّحو العربي الّذي ظهر من العتمة إلى النّور.

مثّلت مثل هذه الملاحظات دافعا للإقبال على دراسة النّحو فكان جلّ تلامذة نحاة الطّور الأوّل من النّحاة وأهل اللّغة فعرجوا نحو النّحو وعرّجوا على مختلف مسائله معجما وتركيبا ودلالة في دراسة للّغة من أجل اللّغة فنشأ النّحو على أيديهم ونما.

اهتمّ نحاة هذه المرحلة بدراسة الكلام المسموع من الأعراب وهمّهم فرز الغثّ من السّمين فكثر بين النّحاة استعمالهم لأحكام من قبيل يجوز ولا يجوز في الكلام –وقد فشا اللّحن بين النّاس واختلط الشاذّ بالمستعمل– ليُنصّب النّحاة أنفسهم حكّاما ومدافعين عن اللّغة في صفائها، وقد حُكّموا بالالتفاف من حولهم في حلقات يستشيرونهم فيتناظرون فيما بينهم وقد وفّرت لهم المجالس ذلك.

تذكر الروايات مجلس أبي عمرو مع أبي خيرة وقد سأله: كيف تقول: حفرت إراتِكَ؟ فأجابه بالنّصب، ثمّ سأله أتقول: استأصل اللّه عِرِقاتِهم أم عرقاتَهم؟ فأجابه على النّصب وكان أبو خيرة من الأعراب الّذين يشهد لهم بالفصاحة[6]. فقد نصّب النّحاة أنفسهم أو جعلوا من أنفسهم درعا لحماية اللّغة من التّحريف فتعدّدت المجالس والمناظرات وهي إحدى مميّزات هذه المرحلة الشفاهيّة، وقد تتبّعنا أثر النّحاة في هذه المرحلة وما دار بينهم من محاورات وما طرحوا من محاور في النّحو فخلصنا إلى النّقاط التّالية، وهي في شكل مطّات مشفوعة بالملاحظات والاستنتاجات.

– **إعراب المستثنى**: بالوقوف على بعض المجالس يمكن القول إنّ أمر المستثنى لم يكن محسوما حال العربيّة آنذاك وقد تنازعتها اللّغات، فبينما يرى عيسى بن عمر نصبه، يجيز أبو عمرو بن العلاء رفعه وذلك أن "ليس في الأرض حجازيّ إلّا وهو ينصب، ولا في الأرض تميميّ إلّا وهو يرفع"[7]، فيجوز كذا كما يجوز كذا. ويقدّم ابن العلاء في ذلك مثالا يجسّمه أبو المهديّ الحجازي الّذي يرى أنّ الرّفع لحن لا يقوله أبدا:

يقولون لي شنبذ ولست مشنبذا *** طـوال اللّيـالي ما أقـام ثبـير
ولا قائلا: زوذا ليعجل صاحـبي *** وبسـتان في صـدري عليّ كبير
ولا تاركـا لحني لأحسن لحنهم *** ولو دار صرف الدهر حيث يدور

إذ كيف للعربيّ صانع اللّغة أن يُقال له قُلْ ولا تَقُل، أمّا المنتجع التّميميّ فإنّه ينصب المستثنى أبدا، وقد اطمأنّ عيسى بن عمر إلى ما سمع فذهب مذهب ابن العلاء واعترف بفضله على سائر من حوله، وهنا نستشف سلطة المسموع في هذه المرحلة.

– **الجمع**: اختلف المنتجع وأبي خيرة في اسم الجمع "كمء"، قال المنتجع: "كمء وكمأة للجميع"، وقال أبو خيرة: "كمأة للواحد وكمء للجميع، مثل تمرة وتمر"[8]. قدّم أبو خيرة تمثيلا بسيطا بعيدا عن التّعقيد وهذا من طبيعة المرحلة الأولى أو مرحلة النّشأة والمشافهة حيث يعتمد المتناظرون على الأمثلة المحسوسة للإقناع بمذهبهم في تصريف وجوه الكلم يؤيّدهم في ذلك سعة السّماع الّذي كان ميسم هذه الفترة. من ذلك جمع يد من الإنسان أيضا فقد جمعها أبو عمرو على أيدٍ وجمعها الأخفش على أيادي وقال: "أما إنّها في علمه غير أنّها لم تحضره" فهم يعتمدون على الذّاكرة في حفظ الموروث اللّغوي.

سأل أبو الأسود غلاما كان يصحبه عن حال أبيه قال: "ما فعل أبوك يا بُنيّ؟ قال: أخذته حمّى فضخته فضخا وطبخته طبخا، وفتخته فتخا فتركته فرخا، قال: فما فعلت امرأة أبيك الّتي كانت تشاره وتجاره وتزاره وتهارّه وتمارّه؟ قال: خيرا، طلّقها وتزوّج غيرها، فحظيت ورضيت وبظيت. قال: فما بظيت يا ابن أخي؟ قال: حرف من العربيّة لم يبلغك. قال: لا خير لك فيما لم يبلغني منها"[9]. تميّزت هذه المرحلة بتنقية اللّغة من الدّخيل فكان النّحاة يخطّؤون من شذّ عن نظامها حتّى أنّهم كانوا يخطّؤون الأعراب أنفسهم كما رأينا في الحوار الّذي دار بين أبي عمرو بن العلاء وأبي خيرة. ويروى أنّ أبا عمرو بن العلاء سمع كلاما في

الفقه من أبي حنيفة فاستحسنه واستقبح لحنه فقال: إنّه لخطاب لو ساعده صواب! ثمّ قال لأبي حنيفة: إنّك أحوج إلى إصلاح لسانك من جميع النّاس"[10].

– **جعل الألفاظ في خدمة المعاني**، إذ المعنى هو المقدّم عندهم ولأجله قامت الألفاظ وصقلت وتخيّرت. وفي البيت التّالي:

غداة أحلّت لابن أصرم طعنة *** حصين عبيطات السّدائف والخمرُ[ـَ]

رفع الكسائي آخر البيت على الفاعليّة مضمرا الفعل، وقد سمعه يونس مفعولا إلّا أنّه قد استحسن ما أتى به الكسائي وأعظمه. يمكن أن نعدّ هذه الإشارة نقطة تحوّل في الدّرس النّحوي من الاتّباع إلى الابتداع وتحرير المعاني بفضل مرونة عنصر الإعراب، يقول يونس: "ما أحسن واللّه ما وجّهته غير أنّي سمعت الفرزدق ينشده ... جعل الفاعل مفعولا"[11]، وكأنّ النّحو قد بدأ يأخذ مسارا نحو الصّناعة بتوجيه المعاني.

– **الاحتيال بالموضع الإعرابي**: وهو احتيال في مواضع وتعليل في مواضع أخرى، أمّا الأوّل ما ذكره الزجاجي في مجلس محمّد بن سليمان الهاشمي في قراءته لاسم إنّ المعطوف مرفوعا في قوله تعالى ﴿إنّ اللّه وملائكته يصلّون على النّبيّ﴾ فاحتال له النّحاة بأنّها جاءت معطوفة على موضع رفع فارتفعت، وروي أنّ أبا عمرو بن العلاء قال: واللّه لو أخطأ الملوك لصوّبنا خطأهم فكيف إذا أصابوا! إنّ منازعة الملوك تضغنهم"، ومن النّحاة من تصدّى لهذه الظّاهرة حتّى خشيهم الأمراء فكان الأخفش مصحّحا لأمير البصرة ثمّ محمّد ابن سليمان كما خشيهم الشعراء وسخطوا عليهم نذكر من ذلك عداء الفرزدق لابن إسحاق، وقد انصبّ اهتمامهم الكبير على تصويب أواخر الكلم أو محاربة اللّحن بالأساس حتّى نُفي بعضهم أو أُبعد. أمّا الحمل على الموضع في المجمل فيكون لدواعي تعليليّة يحتاجها المقام النّحوي فيلجؤون إلى علّة الموضع.

– **في تقدّم المضاف إليه**: يروى أنّ سلمة بن عيّاش سأل أبا عمرو بن العلاء عن إعراب هذا البيت: يا صاحِ يا ذا الضّامر العنس *** والرّحل ذي الأجلابِ والحلسِ
فأجاب فأخطأ ثمّ تدارك بعد أن فاته تقدّم المضاف إليه على المضاف، يقول الأصمعي: "إنّما أراد يا صاح يا ذا العنس الضّامر والرّحل ذي الأجلاب، فلا يكون في الضّامر

الرّفع"[12]. لم يكن من عادة العرب في هذه الفترة دراسة كلامهم وتدقيق النّظر فيه وهو أمر حادث أنشأه النّحاة وصار لهم صناعة فكانت تحدث مناظرات يتبارزون فيها في مجالس الأمراء أو في حلقات تحكم بتقدّم نحويّ على آخر، وكثيرا ما تكون لاختبار الطّرف المقابل وإعلان الغلبة عليه وهي تستند بالأساس إلى مدى القدرة على حفظ كلام العرب ومعانيه وكان الأصمعي في ذلك المقدّم. ومثل هذه المناظرة تتكرّر مع عيسى بن عمر حين يسأله الكسائي في معنى "همَّك ما أهمَّكَ" فيجيبه "يجوز كذا ويجوز كذا"، فيردّ الكسائي: "إنّما أريد كلام العرب، ولم تجئ بكلام العرب"[13].

وفي الفصاحة يروي يونس بن حبيب ما دار بين عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء في مجلس من المجالس، يقول عيسى بن عمر: "ضربهُ فحُشَّتْ يدُهُ"، ويقول أبو عمرو: "حشَّتْ يدَهُ" وكلاهما غلّب ما سمع، أمّا يونس فيذهب إلى إجازة القولين بالضمّ والفتح فقد سمع "حُشّتْ يده بالضمّ وحشَّت بالفتح وأحشّتْ"[14]. فقد اتّسمت هذه الفترة بتغليب السّماع فكلّ ما سمعوا عربيّ حسنٌ.

ذكرنا أنّ القياس قد ظهر في هذه المرحلة لكن لم يكن ينشط له عامّة النّحاة نحو الكسائي في بدايته مثال ذلك ردّه على أسئلة ابن سعيد بالإيجاب والنّفي دون تعليل مذهبه وقد ذكر أنّ "ما" و "من" قد أشبهتا "أيّ" فلمّا طلب إليه تعليل إعراضه عن المثال: "ضربتُ أيَّهم في الدّار؟"، أجاب: "أيٌّ هكذا خلقت"[15]، فلم يكن ثمّة من المصطلحات ما يسعفه من التّعبير عن مقصده، وليس الأمر ببعيد عن الأعرابيّ الّذي حاول الخليل ثنيه عن لغته فردّ "أيش هذا...".

وسأل الخليل بن أحمد الأصمعي: "يا كيّسُ ما الفرق بين **الخفض** و**الجرّ**؟" . وهذه المصطلحات هي الّتي ظلّت متداولة بعد ذلك . فأجابه: "الخفض عندي الشيء دون الشّيء، كاليد إذا جعلتها تحت الرِّجل. والجرّ أن تميل الشّيء إلى الشّيء وتقيم شيئا مقام شيء كقولك: هذا غلام زيد، فزيد أقمته مقام التّنوين"[16]. وهذا التّمثيل في صورة طريفة هو إحدى مميّزات هذه الفترة وهي تقديم المعلومة والتّعبير عنها بطريقة محسوسة إذ لم يسبق لهم أن عرفوا هذه المصطلحات.

– **بداية التّقنين:** ويظهر ذلك من خلال جواب الكسائي عن سؤال أبي عيينة في تصرّف "أولق" فأجاب "أولق أفعل لا ينصرف"، فقد اتّفقوا أنّ ما جاء على وزن أفعل لا ينصرف وفي المقابل ينفي يونس أن تكون أولق أفعل إنّما هي فوعل في نظره واعتبر الهمزة من الحروف الأصول للكلمة، يقول: "لأنّ الهمزة فاء الفعل، لأنّك تقول رجل مألوق فتثبت الهمزة"[17]، وكأنّنا بالكسائي تجسيد لتطوّر الدّرس النّحوي فليست إجاباته على القدر نفسه من الفطنة في محاوراته اللّاحقة وفي قصر المأمون.

من طبيعة المسائل النّحويّة في هذه المرحلة الاتّسام بالبساطة والبعد عن التّعقيد من ذلك سؤال عيسى بن عمر للكسائي: كيف تقرأ ﴿أرسله معنا غدا﴾ ماذا فأجابه الكسائي ﴿يرتعْ ويلعبْ﴾ فسأله عيسى: "لم لم تقرأها: يرتعي ويلعُبُ، فأجابه: "إنّما هي من رتعت لا من رعيتُ"[18]. وسأل هارون بن موسى القارئ أبا عمرو بن العلاء: ﴿لن ينال اللّه لحومها ولا دماؤها﴾ ولكن ماذا؟ فأجابه: ﴿ولكن يناله التّقوى﴾، فردّ هارون: ابن يعمر كان يقرأ: "تناله" ومن ثمّة جاز تأنيث اللّفظ وتذكيره متى سمع، وهذا الأمر يتعلّق بهذه الفترة دون سواها. وسأل يونس أبا إسحاق: "كيف تقرأ ﴿فإذا برق البصرُ﴾[القيامة:7]، فأجابه: "برَق"، فتوجّه يونس إلى أبي عمرو بن العلاء –كمرجع . فقال: "وأين يراد به، يقال برقت السّماء وبرق النّبت وبرقت الأرضُ، فأمّا البصرُ فبرِق، كذا سمعنا"[19]. ولا سلطة تعلو فوق سلطة المسموع.

وما نلاحظه في أغلب الأمثلة أنّها ما تكاد تنفك من أمثلة القرآن والشعر وهما مدوّنة النّحاة إلى جانب المسموع من كلام العرب مع وجود بعض التّحرّر الّذي أوجده عنصر الإعراب في توجيه المعاني وفهم المقاصد والحمل على الموضع.

2– من خلال الكتاب.

كنّا قد أشرنا إلى أهميّة عنصر الإعراب في هذه المرحلة وانشغال النّحاة به لكنّهم لم يتوقّفوا عند الأبواب الأولى منه من فاعليّة ومفعوليّة فقد تطوّر النّحو مع نحاة هذا الطّور فنظروا في مواضع الكلام في حال دخول الحروف عليها وما يطرأ عليها من تغييرات على مستوى الإعراب.

✓ **يونس بن حبيب**

في باب المعنى عني يونس بظاهرة التّقديم والتّأخير للمكوّنات النّحويّة للجملة من ذلك تقدّم الأفعال وتأخّرها وهو ما من شأنه أن يضيف إلى معنى الجملة دلالة حادثة بتأخّر الأفعال عن محلّها الإعرابيّ وهو الصّدارة، وهي أفعال "تستعمل وتلغى" بعبارة سيبويه الّذي قدّم بعض الأمثلة في الغرض، نسوق منها ما يلي:

– أظنّ عمرا منطلقا.

– عبد اللّه أظنّ ذاهبا.

– عبد اللّه ذاهب أظنّ.

وقد أورد يونس في هذا الغرض قول اللّعين يهجو العجّاج، يقول:

أبالأراجيز يا ابن اللّؤم توعدني *** وفي الأراجيز خلْتُ اللّؤمُ والخورُ.

يقول سيبويه: "أنشدناه يونس مرفوعا عندهم. وإنّما كان التّأخير أقوى لأنّه [إنّما يجيء بالشكّ بعدما يمضي كلامه على اليقين، أو بعده يبتدئ وهو يريد اليقين ثمّ يدركه الشكّ"[20].

وفي العمل يرى يونس أن يرتفع الاسم الثّاني بعد الفعل فلا يعمل فيه، "جاز لك أن تقول: إنّ زيدا فيها وعمرو. ومثله: ﴿إنّ اللّه برىء من المشركين ورسولُهُ﴾. فابتدأ لأنّ معنى الحديث حين قال: إنّ زيدا منطلقٌ، زيدٌ منطلقٌ، ولكنّه أكّد [بإنّ]، كما أكّد فأظهر زيدا وأضمره، والرّفع قول يونس"[21].

وفي ذكر العوامل من الحروف سمع يونس من العرب من يقرأ "إنّ" مخفّفة فيقولون: "إنْ عَمْرا لمنطلقٌ"، قال سيبويه: "وحدّثنا من نثق به، أنّه سمع من العرب من يقول: إنْ عمرا لمنطلقٌ. وأهل المدينة يقرؤون: "وإنْ كلّا لما ليوفينّهم ربّك أعمالهم" يخفّفون وينصبون، كما قالوا: *كأنّ ثديه حقّان*"[22]. وقد عددنا عبارة "حدّثنا من نثق به" إشارة إلى يونس ابن حبيب، ذلك أنّه قد قال حين عرض عليه الكتاب أنّه المقصود بالثّقة لكنّ لا يمكن الحسم في الأمر فقد ذهب البعض إلى أنّ الخليل هو المقصود بالثّقة.

ومن الظّواهر النّحويّة الّتي شغلت النّحاة في هذه المرحلة ظاهرة الحذف والإضمار، أمّا ما جاء عن طريق يونس بن حبيب فقوله في إضمار الفعل فيما جرى من الأمر والنّهي فإنّه يزعم أنّه سمع "من ذلك قول العرب في مثل من أمثالهم: "اللّهمّ ضبعا وذئبا" إذا كان يدعو بذلك على غنم رجلٍ"، أي: اللّهمّ أرسل عليهم ضباعا وذئابا. وممّا يحذف منه الفعل في استعمالهم "أنّ بعض العرب قيل له: أما بمكان كذا وكذا وجذٌ؟ وهو موضع يمسك الماء. فقال: بلى، وجاذا(أي) فأعرف بها وجاذا"[23].

تضمر العرب الفعل في غير الأمر والنّهي، من ذلك قولها: "من أنت زيدا، فزعم يونس أنّه على قوله: من أنت تذكر زيدا، ولكنّه كثر في كلامهم واستعمل واستغنوا عن إظهاره". إذ كثرة الاستعمال هي المبرّر من وراء حذف الفعل لما عرف حتّى استغنوا عن إظهاره وتنوب بعض المصادر عن الأفعال في بعض الاستعمالات دون أن يخرج الكلام عن المعنى المراد منه ذلك أنّ "قولك: حمدا في موضع أحمد اللّه، وقولك: عجبا منه في موضع أعجب منه ... "وزعم يونس أنّ رؤبة بن العجّاج كان ينشد هذا البيت رفعا، وهو لبعض مذحج [وهو هُنيّ بن أحمر الكناني]:

عجبٌ لتلك قضيّة وإقامتي *** فيكم على تلك القضيّة أعجبُ"[24].

وفي قوله تعالى: ﴿بلى قادرين﴾[القيامة:4]، يذهب يونس إلى تأويل الآية على معنى: "كأنّه قال: بلى نجمعها قادرينَ" كما حدّث بذلك سيبويه، "وزعم يونس أنّ من العرب من يقول: عائذ باللّه، يريد أنا عائذ باللّه، كأنّه أمر قد وقع، بمنزلة الحمد للّه وما أشبهه"[25] وفي الحكاية تقدير للاسم المبني عليه كما يحكي ذلك الإعراب، فالظّاهر هو المحدّد لماهية الغائب، يقول يونس: "فإن أظهر هذا المضمر لم يكن إلّا الرّفع، إذا جاز الرّفع وأنت تضمر، وجاز لك أن تحمل عليه المصدر، وهو غيره، في قوله: أنت سيرٌ سيرٌ، فلم يجز حيث أظهر الاسم عندهم إلّا الرّفع، كما أنّه لو أظهر الفعلَ الّذي هو بدلٌ منه لم يكن إلّا نصبا"[26].

يرى يونس في قرينة الإعراب مجالا في إمكانيّة الحذف من ناحية وتوجيه علامات الإعراب نحو المعنى المراد من ناحية ثانية، يقول يونس في بيتين للنّابغة الذّبياني:

لعمري وما عمري عليّ بهيّن *** لقد نطقت بطلا عليّ الأقارعُ

أقارعُ عوف لا أحاول غيرها *** وجوه قرود تبتغي من تجادعُ

"إن شئتَ رفعتَ البيتين جميعا على الابتداء تضمر في نفسك شيئا لو أظهرته لم يكن ما بعده إلّا رفعا"[27]. وزعم يونس "أنّه لا يرفع شيئا من التّرحّم على إضمار شيء يرفع ولكنّه إن قال ضربتُهُ لم يقل أبدا إلّا المسكينَ، يحمله على الفعل. وإن قال ضرباني قال المسكينان، حمله أيضا على الفعل. وكذلك مررتُ به المسكينِ، يحمل الرّفع على الرّفع والجرّ على الجرّ، والنّصبَ على النّصب. ويزعم أنّ الرّفع الّذي فسّرنا خطأ. وهو قول الخليل رحمه اللّه وابن أبي اسحاق"[28].

وفي الأحيان، "زعم يونس عن أبي عمرو، وهو قوله أيضا وهو القياس أنّك إذا قلت: لقيته العامَ الأوّلَ، أو يوما من الأيّام، ثمّ قلتَ: غدوةً أو بكرةً، وأنت تريد المعرفة لم تنوّن. وكذلكَ إذا لم تذكر العامَ الأوّلَ، ولم تذكر إلّا المعرفةَ ولم تقل يوما من الأيّام، كأنّكَ قلتَ: هذا الحين في جميع هذه الأشياء. فإذا جعلتها اسما لهذا المعنى لم تنوّن. وكذلك تقول العربُ"[29]. ولا يصرف يونس ما جاء من الأسماء مركّبا، يقول: "ليس شيء يجتمع من شيئين فيجعل اسما سمّيَ به واحدٌ إلّا لم يصرَفْ"[30].

خلافا لمذهب الخليل في صرف المعتلّ، لا يصرف يونس المعتلّ إلّا متى كان نظيره من غير المعتل مصروفا، "فإذا كان لا ينصرف لم يصرف، يقول: هذا جواري قد جاء، ومررت بجواريَ قبلُ. وقال الخليل: هذا خطأ لو كان من شأنهم أن يقولوا هذا في موضع الجرّ لكانوا خلقاء أن يلزموه الرّفع والجرّ، ولكانوا خلقاء أن ينصبوها في النّكرة إذا كانت في موضع الجرّ فيقولوا: مررتُ بجواريَ قبلُ، لأنّ ترك التّنوين في ذا الاسم في المعرفة والنّكرة على حال واحدة"[31]

نجد ليونس حديثا في العدد والجنس، أمّا في الجنس فليس أكثر من إشارته إلى أنّ العرب تختلف في تأنيث الحروف وتذكيرها، "كما أنّ اللّسان يذكّرُ ويؤنّثُ، زعم ذلك يونس، وأنشدنا قول الرّاجز: *كافا وميمينِ وسينا طاسما* فذكّرَ ولم يقلْ: طاسمةً"[32]، إلى جانب إشارته إلى وجود بعض الألفاظ الّتي لا تخضع للقياس. "زعم يونس أنّهم يقولون: حرّةٌ وحرّونَ، يشبّهونها بقولهم: أرضٌ وأرضونَ. لأنّها مؤنّثة مثلها. ولم يكسروا أوّلَ أرضينَ لأنّ التّغيير قد لزم الحرف الأوسط كما لزم التّغيير الأوّل من سنة في الجمع. وقالوا: إوزّةٌ وإوزّونَ، كما قالوا: حرّةٌ وحرّونَ. وزعم يونس أنّهم يقولونَ أيضا: حرّة وحرّونَ، يعنون الحرار كأنّه جمع إحرّة، ولكن لا يتكلّمُ بها"[33].

أمّا في العدد فقد تحدّث عن جمع ما آخره هاء التّأنيث، "زعم يونس أنّك إذا سمّيتَ رجلا طلحة أو امرأة أو سلمة أو جبلةَ، ثمّ أردتَ أن تجمعَ جمعته بالتّاء كما كنت جامعه قبل أن يكون اسما لرجل أو امرأة على الأصل"[34]، ولم يجوّز فيه التّكسير وهو مذهب الخليل أيضا، ويجمع يونس المذكّر في ما عدا هذا المثال على الواو والنّون، ويجمع المؤنّث على التّاء ويجيز فيهما التّكسير على خلاف ما كان آخره هاء التّأنيث، "وهو قول يونس والخليل"[35]. ومن الجمع ما يصاغ واحده من لفظه وذلك بإضافة هاء التّأنيث للتّفرقة في العدد، ويسمّى اسم الجمع، "وقد قالوا: حَلقٌ وفلكٌ، ثمّ قالوا: حلْقَةٌ وفلْكَةٌ.. وزعم يونس عن أبي عمرو، أنّهم يقولون: حَلَقَةٌ"[36].

اعتنى يونس في قسم الاشتقاق أيضا بالنّسبة أو الإضافة في اصطلاح النّحاة القدامى كما اعتنى بالتّصغير أو التّحقير الّذي ناب عنه في مواضع عديدة، اعتناء سيبويه بهما. نقل سيبويه عن يونس في باب "الإضافة إلى فَعيل وفُعيل من بنات الياء والواو"[37]، جملة من وجوه الإضافة والنّسبة:

– من بني ميّة: أميِّيٌّ (قالها ناس من العرب).
– حيّةٌ: حيَوِيٌّ (كراهية أن تجتمع الياءات).
– عَدُوٌّ: عَدُوِّيٌّ/ كُوّةَ: كُوّيٌّ، "وقال: لا أغيّره لأنّه لم تجتمع الياءات"[38].
– تحيَّةٌ: تَحَوِيٌّ.

وكان يونس يقول في ظبيةٍ: ظبَوِيٌّ، فيما كان من الأسماء آخره واوا أو ياء وما قبلهما ساكن. وفي باب الإضافة إلى ما فيه الزّوائد من بنات الحرفين كما ذكر سيبويه، نقل يونس عن أبي عمرو إضافته لهذه الألفاظ على الشّكل التّالي:

– اسم/ ابنٌ/ است/ اثنين: اسميٌّ/ ابنيٌّ/ استيٌّ/ اثْنيٌّ.

وفي باب الإضافة إلى ما ذهبت فاؤه من بنات الحرفين، نحو "عدة"، فإنّها تُضاف على "عِدِيٌّ"، "وكذا قول يونس، ولا نعلمُ أحدا يوثق بعلمه قال خلاف ذلكَ"[39]. وفي الإضافة إلى فَعُلَ، "كلّهم يقولون: سَمُريٌّ. والدّئل بمنزلة النّمر، تقول: دُؤليٌّ. وكذلك سمعناه من يونس وعيسى"[40].

وفي باب التّصغير أورد سيبويه بعض آراء يونس، فليس يونس ممّن يصغّر الاسم الخماسي على لفظه كما يذهب الخليل، وإنّما بحذف الحرف الأخير مع إضافة ياء تكون ثالث الحروف ساكنة كعوض عمّا حُذف، وضمّ الحرف الأوّل وكسر ما قبل الأخير، وقد راعى يونس في ذلك جمع الاسم الّذي يستغني عن الحرف الأخير من لفظ المفرد، يقول سيبويه ناقلا عن يونس تفسيره وقد سمع العرب تتكلّم على هذا النّحو: "وإنّما منعهم أن يقولوا: سُفَيْرِجِلٌ أنّهم لو كسّروه لم يقولوا: سفارِجِلُ، ولا فرازِدِقُ، ولا قباعثر ولا شماردل"[41] من سفرجل، وفرزدق، وقبعثر، وشمردل، وإنّما قالوا: سُفَيْرِجٌ، وفريزد، وقبيعث، وشميرد.

✓ **أبو عمرو بن العلاء**

يُعدّ أبو عمرو من نحاة الإعراب وهي القرينة الّتي من أجلها قام، فنجده بدرجة أولى مصحّحا أو مرجعيّة للتّصحيح، من ذلك ترجيحه القول على الرّفع في قول العرب: "أمّا العبيدُ فذو عبيدٍ، وأمّا العبدُ فذو عبدٍ، وأمّا عبدان فذو عبدينِ"[42]، يقول سيبويه: "وهو قول العرب وأبي عمرو ويونس، ولا أعلم الخليل خالفهما"[43]. وعلى النّصب حمل أبو عمرو قول الشّاعر، وهو عمرو بن كلثوم:

"صَدَدْتِ الكأس عنّا أمّ عمرو *** وكان الكأسُ مجراها اليمينا".

"أي على ذات اليمين"[44] كما حدّث أبو عمرو وقد جعلها ظرفا، "وزعم يونس أنّ أبا عمرو كان يقول: داري من خلف دارِكَ فرسخانِ، فشبّهه بقولك: دارك منّي فرسخان، لأنّ خلف ههنا اسمٌ، وجعل من فيها بمنزلتها في الاسم. وهذا مذهب قويّ"[45].

ويحمل أبو عمرو علامة المستثنى على المستثنى منه إن كان منه مبدلا على الرّفع حدّث يونس سيبويه "أنّ أبا عمرو كان يقول: الوجه ما أتاني القومُ إلّا عبدُ اللّه"[46]، حيث كان الاسم الثّاني جزء من الأوّل، يقول سيبويه معقّبا: "ولو كان هذا بمنزلة أتاني القومُ لما جاز أن تقول: ما أتاني أحدٌ، كما أنّه لا يجوز أتاني أحدٌ، ولكن المستثنى في هذا الموضع مبدل من الاسم الأوّل"[47]. كما كان أبو عمرو يحمل المعطوف على المنادى المنصوب على النّصب، وهو مذهب الخليل أيضا وتفسيره، "وقد زعم يونس أنّ أبا عمرو كان يقوله وهو قول أهل المدينة"[48]. وفي "يوم يوم"، و"صباح مساء"، ونحوهما من الأسماء المضافة

يجعلها أبو عمرو بمثابة الاسم الواحد في حال الظرفيّة والحاليّة كما تفعل العرب فهم "لا يجعلون شيئا من هذه الأسماء بمنزلة اسم واحد إلّا في حال الظّرف أو الحال"[49].

وفي نحو هذا المثال: "ما أظنّ أحدا هو خيرٌ منكَ"، يعدّ أبو عمرو بن العلاء "هو" اسما مبتدأ لا ضمير فصل كما يذهب البعض في عدّه بمنزلة ما بين المعرفتين، "زعم يونس أنّ أبا عمرو رآه لحنا، وقال: احتبى ابن مروان في ذه في اللّحن. يقول: لحنَ، وهو رجل من أهل المدنيّة، كما تقول: اشتمل بالخطأ، وذلك أنّه قرأ: "هؤلاء بناتي هنّ أطْهَرَ لكم، فنصبَ"[50].

وممّا وصلنا من أخبار أبي عمرو بن العلاء أنّه يعدّ عمل كم في الخبر بمنزلة عمل ربّ وإن كانت اسما وهي غير اسم، "والدّليل عليه أنّ العربَ تقولُ: كم رَجُلٍ أفضلُ منكَ، تجعله خبرَ كم. أخبرناهُ يونس عن أبي عمرو"[51]، كما ذكر سيبويه.

وفي التّنوين وحذفه يُجيز كلّ من أبي عمرو والخليل إثبات التّنوين في حال الإضافة خلافا ليونس، يقول أبو عمرو: "إن شئت قلت: لا غلامين ولا جاريتين لكَ، إذا جعلتَ لكَ خبرا لهما"[52]. في رواية سيبويه. كما روى يونس عن أبي عمرو "أنّكَ إذا قلتَ: لقيته العام الأوّل، أو يوما من الأيّام، ثمّ قلتَ: غدوةَ أو بكرةَ، وأنت تريد المعرفة لم تنوّن. وكذلك إذا لم تذكر العام الأوّلَ، ولم تذكر إلّا المعرفة ولم تقل يوما من الأيّام، كأنّك قلتَ: هذا الحين في جميع هذه الأشياء. فإذا جعلتها اسما لهذا المعنى لم تنوّن"[53]. فلم تنصرف "غدوة" و"بكرة" لمّا كانتا حينا. كما لا يصرف ما كان اسما للقبيلة، نحو: "سبأ" في الرّواية[54].

ولا ينصرف ما سمّي بالمؤنّث من الرّجال، "فإن سمّيتَ المؤنّثَ بعمرو أو زيد، لم يجز الصّرف، هذا قول ابن أبي اسحاق وأبي عمرو، فيما حدّثنا يونس"[55]. أمّا إذا سمّيَ الرّجل بـ"ضارِبْ"، أو "ضارَبَ"، أو "ضَرَبَ"، "فهو مصروف.. وهو قول أبي عمرو والخليل"[56].

وفي باب الإضافة أي إضافة اسم إلى اسم، "إذا لقّبت مفردا بمفرد أضفته إلى الألقاب، وهو قول أبي عمرو ويونس والخليل، وذلك قولك: هذا سعيد كرز، وهذا قيس قفّةَ قد جاء ... فإذا لقّبت المفرد بمضاف والمضاف بمفرد، جرى أحدهما على الآخر كالوصف، وهو قول أبي عمرو ويونس والخليل"[57].

وفي باب النّسبة والتّصغير لأبي عمرو مذهب أمّا في النّسبة وهي الإضافة عندهم فإنّها تتجلّى في مواضع فقوله مخالف ليونس في إضافة "كلّ اسم كان آخره ياء وكان الحرف الّذي قبل الياء ساكنا، وما كان آخره واوا وكان الحرف الّذي قبل الواو ساكنا"، كما عبّر سيبويه عن الاسم النّاقص وكان ما قبل آخره ساكنا، فهو يقول في مثل ظبية "ظَبْيِيٌّ" وهو مذهب يرجّحه الخليل ويراه أقيس من قول يونس: "ظَبَوِيٌّ"[58].

وفي "الإضافة إلى فَعِيل وفُعَيل من بنات الياء والواو"، يقول أبو عمرو في حيّة وليّة: حيِّيٌّ، ولَيِّيٌّ"[59]، في رواية سيبويه، كما حدّث يونس أنّ أبا عمرو كان يقول في الإضافة "إلى ما فيه الزّوائد من بنات الحرفين"(سيبويه)، نحو: ابن واسم واست، واثنان واثنتان وابنة: "اسْمِيٌّ، واستِيٌّ، وابنِيٌّ واثنِيٌّ، في اثنين واثنتين"[60].

وفي التّصغير أو التّحقير، واللّفظ الأخير أكثر رواجا عندهم، يقول سيبويه ناقلا ما حدّثه يونس "أنّ أبا عمرو كان يقول في مُرٍ: مُرَيْئٍ مثل مُرَيْعٍ، وفي يُري: يُرَيْئٍ يهمز ويجرّ لأنّها بمنزلة ياء قاضٍ، فهو ينبغي له أن يقول: مُيَيْتٌ، وينبغي له أن يقول في ناسٍ: أنيِّسٌ لأنّهم إنّما حذفوا ألف أناس. [وليس من العرب أحد إلّا يقول: نُويْسٌ]".

لا نظفر بأكثر من هذه الشّواهد الّتي لئن كشفت عن جانب ضئيل جدّا من فكر أبي عمرو إلّا أنّها قد عبّرت أيضا عن تطوّر الدّرس النّحوي الّذي يكاد اللّاحق يستغني فيه عن السّابق أو يتجاوزه فما كان سيبويه ليفرّط في دروس أبي عمرو لو كانت مؤاتية للنّظريّة الّتي يزمع تأسيسها فكانت شواهده تقلّ من نحويّ إلى آخر وصولا إلى أستاذه وهو ما يمكن أن نعبّر عنه بالتّطوّر في الفكر النّحوي.

- ✓ **أبو الخطّاب الأخفش**

أمّا أبو الخطّاب الأخفش (ت 117هـ) وقد سجّل حضورا دون الخليل وتلميذه يونس بن حبيب، فإنّنا نجد له مذاهب في مسائل النّحو تُؤخذ بعين الاعتبار في رسم ملامح الدّرس النّحوي.

اعتنى الأخفش بمسائل تعبّر عن المرحلة الّتي انتمى إليها كما تعبّر عن تطوّر الدّرس النّحوي من خلال وصف بعض الظّواهر وتفسيرها، أمّا الجانب الأوّل فيظهر من خلال عنايته بالجانب المعجمي من اللّغة وإيراد لغات العرب وشرح معنى بعض المفردات، من ذلك قوله: "يُقال للرّجل المداوم على الشّيء لا يفارقه ولا يقلع عنه: قد ألبَّ فلان على كذا وكذا. ويُقال: قد أسعَدَ فُلانٌ فُلانا على أمره وساعَدَهُ، فالإلبابُ والمساعدةُ دُنُوٌّ ومتابعةٌ"[61]. يكشف هذا التّفسير للألفاظ عدم فصل نحاة هذا الطّور بين أجزاء اللّغة هذا إلى جانب الكشف عن صيغة المبالغة الّتي نستشفّها من وزن الفعل دون تصريح الأخفش الّذي انصرف وراء المعنى يطلبه وهو كغيره من النّحاة في هذه المرحلة لم تستوقفهم المصطلحات فكان طلب المعنى يستدعي جملا وأمثلة توضيحيّة.

لم يهمل الأخفش أيضا لغات العرب فكان يأخذ بها ويذكرها دون أن يسقطها من اعتباره ولو كانت شاذّة في الاستعمال، من ذلك مزعمه "أنّ ناسا من العرب يقولونَ في الوقفِ: طلحتْ، كما قالوا في تاء الجميع قولا واحدا في الوقف والوصلِ.. وزعم أبو الخطّاب أنّ أزد السّراة يقولون: هذا زيدو، وهذا عمرو، ومررتُ بزيدي، وبعَمْري، جعلوه قياسا واحدا، فأثبتوا الياء والواو كما أثبتوا الألفَ"[62]. من ذلك أيضا "قول بعض العرب في أفعى: هذه أفْعَيْ، وفي حُبْلى: هذه حُبْلَيْ، وفي مُثنّى: هذا مُثنّيْ. فإذا وصلتَ صيّرتها ألفا. وكذلك كلّ ألف في آخر الاسم"[63]، وقد حدّث بها كلّ من الخليل والأخفش وقد تشرّبا لغة أهل البادية ونسبوا ذلك إلى فزارة وناس من قيس، وقال الأخفش وغيره من العرب أنّ طيْ "يدعونها في الوصل على حالها في الوقف لأنّها خفيّة لا تُحرّكُ، قريبة من الهمزة.. وزعموا أنّ بعض طيْ يقول: أفْعَوْا، لأنّها أبيَنُ من الياء"[64]. وممّا نقل أيضا من لغات العرب قولهم: "كِيدَ زيد يَفْعَلُ، وما زِيلَ زيدٌ يَفْعَلُ ذاكَ، يريدونَ: زالَ وكادَ"[65]. وممّا شذّ في الاستعمال قولهم: "هنانان، يريدون هنيْنِ"[66]، كما "أنّه سمع من يقول: حيْ هَلَ الصّلاةَ"[67]، ومن ذلك أيضا روايته "أنّ ناسا من العرب يقولون: ادْعِهْ من دعَوتُ، فيكسرون العين"[68]. وبعض العرب يبدلون الياء همزة فيما حدّث الأخفش، من ذلك قول "بعض العرب: راءةٌ في رايةٍ"[69].

أولى الأخفش أهميّة لانتظام الكلم في الكلام حفاظا على سلامة المعنى الّذي قام لأجله الإعراب أوّلا والخوض في مسألة العمل والتّعليل ثانيا. فنظر في مراتب الكلم في الجملة فتطرّق إلى ظاهرة التّقديم والتّأخير وهي كثيرة في القرآن والشّعر ووجوه استحسانها واستقباحها في الاستعمال، من ذلك نورد جملة هذه الأمثلة في باب التّنازع الّتي تتبّعها سيبويه[70]:

– ضرَبَني وضَرَبتُهُمْ قومُكَ: "شَغلتَ الآخِرَ فأضمرتَ فيه"، تأخّر فاعل الفعل الأوّل فأضمر في الثّاني فاعله لعدم مجيء فعل من دون فاعل.

– ضَرَبوني وضربتهُمْ قومَكَ: القوم في هذا المثال بدل من "هم" من "ضربتهم".

– ضَرَبَني وضَرَبْتُ قومُكَ: الوجه: ضَربوني وضَرَبْتُ قومَكَ.

وفي التّعدي واللّزوم حدّث أبو الخطّاب عن تعدّي بعض الأسماء الّتي أشبهت الأفعال في العمل إلى معمولين وهما المأمور والمأمور به أو المنهي والمنهيّ عنه إذا علمنا أنّ هذه الأسماء تختصّ بالأمر والنّهي، نحو: عليكَ، ودونَكَ، وعندكَ: كما تحدّث أبو الخطّاب عن قصور بعض الأسماء منها عن التّعدّي وهو حرف بلغ سيبويه، يقول: "حدّثنا أبو الخطّاب أنّه سمع [من العرب] من يُقال له: إليكَ، فيقول: إليَّ. كأنّه قيل له: تنحّ. فقال: أتنحّى"[71].

أشار أبو الخطّاب أيضا إلى تقدير الأفعال المحذوفة في بعض استعمال العرب استغناء فزعم "أنّ سبحان اللّه كقولك: براءة اللّه من السّوء، كأنّه يقول: [أبرّئ] براءة اللّه من السّوء. وزعم أنّ مثله قول الشّاعر، وهو الأعشى:

أقول لمّا جاءني فخرُه *** سبحانَ من علقمةَ الفاخرِ"[72].

ومن مواضع حذف الفعل أن يأتي الكلام لفظا يختزله مصدرا منصوبا، زعم أبو الخطّاب معقّبا على الكلام السّابق، "أنّ مثله قولك للرّجلِ: سلاما، تريد تسلّما منك. كما قلتَ: براءة منكَ، تريد: لا ألتبس بشيء من أمركَ. وزعم أنّ أبا ربيعة كان يقول: إذا لقيتَ فلانا فقل له سلاما. فزعم أنّه سأله ففسّره له بمعنى براءة منك. وزعم أنّ هذه الآية: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ بمنزلة ذلك، لأنّ الآية فيما زعم مكيّة، ولم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلّموا على المشركين، ولكنّه على قولك: ﴿براءة منكم﴾ وتسلّما، لا خير بيننا وبينكم ولا شرّ. وزعم أنّ قول الشّاعر، وهو أميّة بن الصّلت:

سَلامك ربّنا في كلّ فجر *** بريئا ما تغنّتْكَ الذُّمومُ

على قوله: براءتَكَ ربُّنا من كلّ سوءٍ"[73].

لم يعتن الأخفش بظاهرة العمل في اللّغة حتّى أنّه لم يتعرّض لهذا المصطلح لمّا كانت عنايته كما صوّره سيبويه ناقلا لكلام العرب على النّحو الّذي تكلّموا به، ليكون شاهدا على بعض وجوه الاستعمال في اللّغة من ذلك دخول الألف واللّام على المضاف من الصّفات المضافة وهو مذهب يقوّيه شهادة الأخفش وقد زعم "أنّه سمع قوما من العرب ينشدونَ هذا البيت للحارث بن ظالم:

فما قومي بثعلبة بن سعد *** ولا بفزارةَ الشّعرى رقابا[74]"

وهذا الشاهد لسيبويه نعدّه رأيا للأخفش في تصريف وجوه الكلام. كما أشار الأخفش إلى حضور ظاهرة التّقديم والتّأخير في الجمل الاسميّة، فإذا كان أحد طرفي الإسناد ضميرا جاز تقديمه وتأخيره وكان الكلام فصيحا إذ "زعم أبو الخطّاب أنّ العربَ الموثوق بهم يقولون: أنا هذا، وهذا أنا"[75].

أمّا على مستوى التّصريف فقد أشار الأخفش إلى إشتراك جملة من الأفعال في نفس الصّيغة وكذلك المصادر، فزعم أنّ العرب تقول: "ملِئْتُ من الطّعامِ، كما يقولونَ: شَبِعْتُ وسَكِرْتُ"، و"أنّهم يقولون: شهيتُ شَهْوَةً، فجاؤوا بالمصدرِ على فَعْلَةٍ، كما قالوا: حِرْتَ تَحارُ حَيْرَةً وهو حَيْرانُ"[76]. ولا يمكن أن يكون الأخفش قد غفل عن اشتراك هذه الأحداث في المعنى ممّا استدعى اشتراكها في الوزن، يؤيّد ذلك مزعمه "أنّهم يقولونَ: رجُلٌ أهْيَمُ وهيْمانُ، يريدون شيئا واحدا وهو العطشانُ"[77].

رأى الأخفش وكما سمع أيضا أنّ الأحيان تُنوّن إذا أريد بها الحين من الزّمن لا اسمه من ذلك بكرةً وعشيّةً، "زعم أبو الخطّاب أنّه سمعَ من يوثَقُ به من العرب يقول: آتيكَ بكرةً وهو يريد الإتيان في يومه أو في غده"[78].

كما نجد حديثا في التّثنية والجمع، وفيهما يعتمد الأخفش أيضا على المسموع من كلام العرب، أمّا في التّثنية فإنّنا نجده يمثّل شاهدا في باب الإمالة من المنقوص على ثلاثة أحرف، حيث المذهب عند سيبويه أنّه متى "ذهبت الألف فالّتي الألف بدل منها أولى"[79]، واوا أو ياء، يعضده قول الأخفش نقلا عن أهل الحجاز كما في الشّاهد: "يدلّك على ذلكَ أنّهم يقولون: غزا فيميلون الألف، ثمّ يقولون: غزوا، وقالوا: الكبا ثمّ قالوا: الكبَوانِ، حدّثنا بذلك أبو الخطّاب عن أهل الحجاز"[80].

أمّا في الجمع فإنّنا نجد حضورا للأخفش في بابين اثنين وهما تكسير ما كان من الصّفات على أربعة أحرف، وما جاء بناء جمعه على غير لفظه، أمّا في الأوّل فقد "زعم أبو الخطّاب أنّهم يجعلون الشّمال جميعا، فهذا نظيره. وقالوا: شمائل كما قالوا: هجائن. وقالوا: درعٌ دلاصٌ وأدرُعٌ دلاصٌ، كأنّه كجواد وجياد. وقالوا: دُلُصٌ كقولهم هُجُنٌ"[81]، وفي الباب الثّاني "زعم أبو الخطّاب أنّهم يقولون: أرضٌ وآراضٌ أفعالٌ، كما قالوا: أهْلٌ وآهالٌ"[82].

وفي **باب الإضافة إلى ما فيه الزّوائد من بنات الحرفين**، "كان يقول: إنّ بعضهم إذا أضاف إلى أبناء فارسٍ قال: بنويّ" خلافا لأبي عمرو الّذي حمله على "ابنيٌّ"[83].

وقد روى الأخفش عن العرب سبل تحقيرها للألفاظ فكان شاهدا لسيبويه في مواضع ثلاثة، أمّا الموضع الأوّل فإنّه يتمثّل في المسموع من كلام العرب في تكسير الجمع الّذي يُحقّرُ عليه وقد أورد سيبويه أمثلة في التّكسير لها وجهان والمبرّر في ذلك سماع مفردها على وجهين في الاستعمال، فـ"الّذين قالوا: دوانيقُ وخواتيمُ وطوابيقُ إنّما جعلوه تكسير فاعال وإن لم يكن من كلامهم. كما قالوا: ملامح والمستعمل في الكلام لمحةٌ، ولا يقولونَ ملمحةٌ. غير أنّهم قد قالوا: خاتامٌ، حدّثنا بذلكَ أبو الخطّاب"[84].

- ✓ **عيسى بن عمر**

يحضر عيسى بن عمر حضورا توظيفيّا في الكتاب ليبدو راوية عن العرب في شعرها ونثرها وهو ما من شأنه أن يصوّر ظروف هذه النّشأة التي اعتمدت اعتمادا كبيرا على النّقل والحفظ من ذلك استشهاد سيبويه بمحفوظه الشّعريّ في حذف التّنوين في حال إلتقاء السّاكنين أو للتّفرقة بين المعاني، مثال الأوّل، "زعم عيسى أنّ بعض العرب ينشدُ هذا البيت، [لأبي الأسود الدّؤلي]:

فألفيتُهُ غير مستعتِبٍ *** ولا **ذاكرِ** اللّهِ إلّا قليلا"[85].

ومثال الثّاني، "زعم عيسى أنّهم ينشدونَ هذا البيتَ:

هل أنتَ **باعِثُ** دينارٍ لحاجتنا *** أو عبْدَ ربِّ أخا عونِ بن مخراقِ"[86].

يقدّر النّحاة الوجهة الّتي أرادها المتكلّم بايراده اسم الفاعل منصوبا في البيتين التّاليين وقد عُلِمَ أنّ الإعراب في الألفاظ للمعاني:

أَلَمْ تـرني عاهـدتُ ربّـي وإنّـني *** لبين رتاجِ الحيّ قائما ومقامِ

على حلفة لا أشتمُ الدّهرَ مُسلما *** ولا **خارجًا** منْ فيَّ زورُ كلامِ.

كما روى عيسى عن ذي الرمّة بيتين على النّصب وقد جرى فيهما الآخر على الأوّل وهو تفسير على ضوء ما لحق اللّفظ من إعراب:

"لقد حملت قيس بن عيلان حربها *** علـى مستقـلّ للنّوائـب والحـربِ

أخاها إذا كانـت عضـانا سمـا لها *** على كلّ حالٍ من ذلولٍ ومن صعبٍ"[87].

وممّا جوّز عيسى نصبه على المعنى وصف الاسم الّذي لحقه ألف ولام التّعريف وحمله على قولهم: "هذا رجُلٌ مُنْطَلِقاً"، وقد تفرّد عيسى بقوله "يا مطرا"، يشبّهه بقوله يا رَجُلا"[88] يقول سيبويه معقّبا: "ولم نسمع عربيّا يقوله".

وعيسى ممّن ينزّل الضّمائر المنفصلة في بعض المواضع بمنزلة الابتداء اعترافا منه بوجود من يقولها من العرب ويسوق على ذلك شاهدا من القراءات، نحو الآية ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا همُ الظّالمونَ﴾، يقول سيبويه: "حدّثنا عيسى أنّ ناسا كثيرا يقرؤونها"[89].

ويحمل عيسى ما يلي إنّ على الحكاية في بعض المواضع، يقول سيبويه: "كان عيسى يقرأ هذا الحرفَ: "فدعا ربّهُ إنّي مغلوبٌ [فانتصِرْ] أراد أن يحكي، كما قال عزّ وجلّ: ﴿والّذينَ اتّخذوا من دونه أولياء ما نعبُدُهُمْ﴾ كأنّه قال واللّه أعلم: قالوا ما نعبُدُهُمْ. [ويزعمونَ أنّها في قراءة ابن مسعود كذا]. ومثل ذلكَ كثير في القرآنِ"[90].

ومن مواضع أنّ أن تأتي لتّأكيد المعنى في ذهن المتقبّل في بعض المواضع وقد رُوي "عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النّحاة 'إنّي أجد في كلام العرب تكرارا في قولهم: زيدٌ قائمٌ، وإنّ زيدا قائمٌ، وإنّ زيدا لقائمٌ والمعنى واحد' فقال له: إنّ معانيها مختلفة، فالأوّل: لإفادة الخالي الذّهن من قيام زيد، والثّاني: لمن سمعه فتردّد فيه، والثّالث: لمن عُرِف بالاصرار على إنكاره فاختلفت الدّلالة باختلاف الأحوال"[91].

وفي باب "إذن" واستعمالاتها، "زعم عيسى بن عمر أنّ ناسا من العربِ يقولونَ: إذن أفعَلُ ذاكَ، في الجَوابِ. فأخبرتُ يونس بذلك فقال: لا تُبْعِدنّ ذا. ولم يكُنْ لِيَرْوِيَ إلّا ما سمعَ، جعلوها بمنزلة هل وبل"[92].

خاتمة:

كان هذا العمل مناسبة للبحث في نشأة النّحو العربي، وقد مثّلت سير النّحاة مرجعا عدنا إليه في عمليّة التّأريخ هذه، لنكشف عن ظروف نشأة النّحو العربيّ وشواغله الأولى وقد ضمّته المجالس قبل صفحات الكتب، لنقف عند أثر الشّفويّ وسلطة السّماع فيه، كما تتبّعنا شواغل الأعلام النّحويّة آنذاك في بيئة لم تفقد الفصاحة فيها مركزها، فكان الفكر خصبا والعلم نزرا على حدّ تعبير أحد النّحاة التّابعين. لننتهي إلى رسم ملامح حقبة زمنيّة في تاريخ النّحو العربي أطلقنا عليها تسمية مرحلة النّشأة، وهي مرحلة امتدّت إلى حدود ظهور الكتاب أوّل مؤلّف في النّحو العربي وقد سبقته بعض المصنّفات الّتي بقي ذكرها ولم يبق أثرها مثل مصنّفي الجامع والكامل لعيسى بن عمر، فكان الكتاب لنا مرجعا ثان بعد السّير لتسجيل ملامح هذه المرحلة قبل انطلاق حقبة تاريخيّة ثانية معه.

الهوامش والإحالات

(1)– إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، ج2، ص 329.

(2)– كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي،ترتيب ومراجعة: د.داود سلّوم، د. سلمان العنبكي د. إنعام داود سلّوم، مكتبة لبنان ناشرون، ط1: 2004.

(3)– مجالس العلماء، ص237.

(4)– إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، ج2، ص172.

(5)– إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، ج2، ص381.

(6)– مجالس العلماء، ص5.

(7)– مجالس العلماء، ص1.

(8)– مجالس العلماء، 3. 7

(9)– أبو جناح (صاحب)، دراسات في نظريّة النّحو العربي وتطبيقاتها، ص11.

(10)– مجالس العلماء، ص237.

(11)– مجالس العلماء، ص21. 22.

(12)– مجالس العلماء، ص111.

(13)– مجالس العلماء، ص147. 148.

(14)– مجالس العلماء، ص 157.

(15)– مجالس العلماء، ص244.

(16)– مجالس العلماء، ص253.

(17)– مجالس العلماء، ص254.

(18)– مجالس العلماء، ص263.

(19)– مجالس العلماء، ص247.

(20)– الكتاب، ج1، ص120.

(21)– الكتاب، ج1، ص238.

(22)– الكتاب، ج2، ص140.

(23)– الكتاب، ج1، ص256.

(24)– الكتاب، ج1، ص319.

(25)– الكتاب، ج1، ص347.

(26)– الكتاب، ج1، ص347.

(27)– الكتاب، ج1، ص71.

(28)– الكتاب، ج2، ص77.

(29)– الكتاب، ج3، ص293.

(30)– الكتاب، ج3، ص297.

(31)– الكتاب، ج3، ص312.

(32)– الكتاب، ج3، ص260.

(33)– الكتاب، ج3، ص599. 600.

(34)– الكتاب، ج3، ص394.

(35)– الكتاب، ج3، ص396.

(36)– الكتاب، ج3، ص584. 583.

(37)– الكتاب، ج3، ص344.

(38)– الكتاب، ج3، ص345.

(39)– الكتاب، ج3، ص369.

(40)– الكتاب، ج3، ص343.

(41)– الكتاب، ج3، ص418.

(42)– الكتاب، ج1، ص387.

(43)– الكتاب، ج1، ص389.

(44)– الكتاب، ج1، ص405.

(45)– الكتاب، ج1، ص417.

(46)– الكتاب، ج2، ص311.

(47)– الكتاب، ج2، ص311. 312.

(48)– الكتاب، ج2، ص185. 184.

(49)– الكتاب، ج3، ص303.

(50)– الكتاب، ج2، ص396. 397.

(51)– الكتاب، ج2، ص161.

(52)– الكتاب، ج2، ص282.

(53)– الكتاب، ج3، ص293.

(54)– الكتاب، ج3، ص253.

(55)– الكتاب، ج3، ص242.

(56)– الكتاب، ج3، ص206.

(57)– الكتاب، ج3، ص294. 295.

(58)– الكتاب،ج3، ص346

(59)– الكتاب، ج3، ص345.

(60)– الكتاب، ج3، ص361.

(61)– الكتاب، ج1، ص353.

(62)– الكتاب، ج4، ص167.

(63)– الكتاب، ج4، ص181.

(64)– الكتاب، ج4، ص181.

(65)– الكتاب، ج4، ص342.

(66)– الكتاب، ج4، ص424.

(67)– الكتاب، ج3، ص300.

(68)– الكتاب، ج4، ص160.

(69)– الكتاب، ج3، ص468.

(70)– الكتاب، ج1، باب الفاعلَيْن والمفعولَيْن الّذين كلّ واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذي يفعل به وما كان نحو ذلك، ص73.

(71)– الكتاب، ج1، ص250.

(72)– الكتاب، ج1، ص324.

(73)– الكتاب، ج1، ص324. 325.

(74)– الكتاب، ج1، ص201.

(75)– الكتاب، ج2، ص354.

(76)– الكتاب، ج4، ص23.

(77)– الكتاب، ج4، ص20.

(78)– الكتاب، ج3، ص294.

(79)– الكتاب، ج3، ص386.

(80)– الكتاب، ج3، ص386. 387.

(81)– الكتاب، ج3، ص639.

(82)– الكتاب، ج3، ص616.

(83)– الكتاب، ج3، ص361.

(84)– الكتاب، ج3، ص 425.

(85)– الكتاب، ج1، ص169.

(86)– الكتاب، ج1، ص181.

(87)– الكتاب، ج2، ص65.

(88)– الكتاب، ج2، ص203.

(89)– الكتاب، ج2، ص392.

(90)– الكتاب، ج3، ص143.

(91)– موسوعة العلامة ابن خلدون، المجلّد 2، ص1073. 1074.

(92)– الكتاب، ج3، ص16.